من زاوية تربوية

العنف ضد الرجل

أ.د/ محمد وجيه الصاوي

ظهرت في الآونة الأخيرة كلمات وصيحات تعتبر مفاتيح ضغط أو أزرار صداع أو بؤر تؤرق الحكومة، وتستخدمها "أمنا الغولة" (أمريكا) لتصبح عصا تؤدب بها من حاد عن دربها، فمن هذه التلاكيك "حقوق الأقليات في مصر"، " الممارسة الديمقراطية"، "حقوق الإنسان"، "الفساد"، "العنف ضد المرأة"، وغير ذلك.

فمن حيث الموضوع الأول نجد ردود أفعالنا تحمل صيحات الرفض للفتنة الطائفية، وأننا نسيج واحد، ولا تعصب، ولا فرق بين مسلم ومسيحي في كونه مواطنا مصريا، وعن الممارسة الديمقراطية، نعلن أننا أفضل شعب في الممارسة الديمقراطية، والحرية ممنوحة للجميع، والسلطة تتبادل بالدستور والتعبير، من خلال القنوات الشرعية، إلى غير ذلك من الكلمات.

أما عن حقوق الإنسان فإن أجهزتنا المسئولة تحاول أن تقنع المراقبين لها بأن مصر تعطف على المسجونين، "وتدلعهم"، وترفه عنهم، فتصور وسائل الإعلام "شعبان عبد الرحيم" مثلا وهو يغني لهم في السجن ويلعب معهم كرة القدم، وتلك سطحية ساذجة في التعامل مع القضية، علما بأن أساليب التعذيب الحديثة، ووسائلها الإليكترونية مستوردة من "أمريكا" أقصد أمنا الغولة، التي ابتدعت كل أنواع التعذيب وصنعت القلق والصراع وعمقت الإرهاب في العالم، وولدت الاستعمار الحديث الذي يتمحك في محاربة الإرهاب والدكتاتورية تحت شعار نشر الديمقراطية.

أما حقوق الإنسان التي دعا إليها الإسلام منذ أكثر من أربعة عشر قرنا، جاءت أمريكا لتطنطن، مدعية أنها راعية لها، وبحجة هذه الدعوى تريد أن تتدخل في شئون كل الدول، وقد تناست أنها اخترقت كل القوانين ومازالت تخترق كل الأعراف الدولية في تدمير كرامة الإنسان وسلب آدميته ومثال ذلك ما يحدث في أفغانستان، والعراق، وفلسطين.

وأما العنف ضد المرأة فإن الموقف يتم تصويره على أن المرأة مهانة الكرامة، منكسرة الخاطر، مهضومة الحقوق، متخلفة في كل شيء، وقد سبب لها الرجل كل المصائب،

فتهب ردود الأفعال لتنفي بشدة تلك الممارسات، فنبدأ في إنشاء الجمعيات والتجهيز للقاءات، وكأننا نؤكد بالفعل أن الأمر واقع والحقيقة ثابتة، وعلينا أن نحارب هذا الشبح، مثل "دون كيشوت" الذي حارب طواحين الهواء.

يا من تريد أن ترفع اسم مصر عاليا وتفهم المتغيرات أولا وثانيا، عليك أن تعلم أنها مآرب الذئب الذي أراد أن يأكل الحمل الوديع فقال له إنك عكرت الماء الذي أشرب منه، فقال له الحمل: إن اتجاه تيار المياه يأتي من ناحيتك فكيف أعكره؟ فقال الذئب: إذن جدك فعل ذلك، ثم هجم عليه وأكله.

ما يثار حول العنف ضد المرأة يجعلنا ننظر للمشكلة من حيث الفكرة السائدة في الغرب والصورة المنطبعة في أذهانهم حول الرجل العربي والمرأة العربية، وهي صورة مشوهة سببها جهل الأمريكان والأوربيين بتعاليم ديننا، وعدم معرفتهم بالعادات والتقاليد الصحيحة في مجتمعاتنا.

فعندما كنت أدرس بأمريكا كان زملائي وزميلاتي بالفصل الدراسي يسألونني كمجموعة من باب حب الاستطلاع: كم عدد الزوجات اللاتي أتين معك؟ وذلك لتصورهم أن كل رجل مسلم بالضرورة لديه أكثر من زوجة.

وانهالت الأسئلة علىّ عندما أوضحت دور المرأة ومكانتها المشرقة، فاندهش الكثيرون، ثم قالت واحدة من الحضور: إذن ما الفرق بين المرأة عندنا وعندكم؟ فقلت لها بكل جدية: "فرق جوهري خطير، هو أن المرأة هنا تلد وعندنا تبيض"، فقهقه الحضور وعرفوا أنهم جهلة.

إذن فالصورة غير واضحة لدى الغرب، وكل ما لديهم من معارف ناقصة مشوشة، وغير حقيقية، مبنية على القصور في العلم والمعرفة، ويكمن وراءها النيل من المسلمين وتشويه الحقائق، ونحن قد ساعدنا على هذا بترديد ما يتصوره الغرب، وأصبحنا أبواقا تردد ما يقول، وصرنا ندافع عن أنفسنا كمتهمين، وكل أقوالنا الآن ردود أفعال لما يتلفظ به الغرب بدلاً من أن تكون مبادرة وهجوم.

فاقرأ معي يا عزيزي القارئ: إن موضوع العنف ضد المرأة اختصرته أمريكا في أحد أبعاده حول الختان الذي يجرى للإناث في مصر، فكنت أتساءل في دهشة ما مظهر

العنف هنا؟ (جرى الحوار في مؤتمر بالمنيا عام ٢٠٠١)، قيل لي: يتمثل في ختان الفتاة والاعتداء عليها بشكل وحشي والحالة النفسية السيئة التي يتركها هذا الموقف، قلت لهم: إذن هذا ينطبق على الرجل، حيث تم معه هذا الموقف الذي يشكل حالة نفسية تبرهن على العنف أو الاعتداء عليه، فكل منهما يقتطع منه شيئا، فقيل لي: بل إن ما يقتطع للإناث جزء أساسي فيه الحس والحساسية، وما يقتطع من الرجال شيء زائد، فقلت لهن (عضوات ومندوبات الدفاع عن حقوق المرأة واللاتي يحاربن العنف ضد المرأة): لا أتحدث الآن عن الجزء الزائد أو غير الزائد، بل على الحالة والموقف النفسي والمؤلم والمتمثل فيه كلمة عنف ضد .. فهذا الموقف فيه عنف ضد المرأة والرجل؛ فالأفضل أن يقال الممارسات الخاطئة ضد المرأة.

فتم تصحيح هذا المفهوم الذي يقصر العنف على حالة الختان للفتاة، وبعد المؤتمر جاءتني طبيبة/عضو هيئة تدريس على انفراد، وأيدت كلامي، ثم أضافت جزئية هامة هي: "أن الشعور بالألم لدى الرجل أقل؛ لأن الطهارة للذكور تكون في سن مبكرة لم يكتمل بها العصب الذي يشعر بالألم"، فقلت لها: "إذن علينا أن نقوم بتوعية أولياء الأمور، وفق ما يتراءى لهم، ووفق حريتهم وعاداتهم وتقاليدهم، من ناحية أن يختنوا بناتهم في سن مبكرة مثل الذكور وتنتهي القضية"، وتلك زاوية واحدة من مسمى العنف الذي بالغوا فيه، وقيل إنه موجه ضد المرأة.

الأمر المثير للضحك أيضا أن تشعر الفتيات في أمريكا أنهن مسلوبات الحقوق وهناك عنف وعدم مساواة بينهن وبين الذكور، حيث إن الفتاة حين تتزوج يتم سلب اسم أبيها وجدها، ويتغير اسمها إلى اسم زوجها، فمن الأشياء التي أثارت دهشتهن بأننا لم نغير اسم الفتاة حين تتزوج، وأبدين السرور والتطلع بأن يطبق هذا الأمر في أمريكا، كنوع من التمني، واعتقد أن هذا في أيديهن، ولكن لم تظهر أية حركة نسائية في أمريكا تطالب بذلك، ولا تجرؤ أن تطالب بذلك لاحترامهم العرف والتقاليد هناك.

أما وقد سمعنا العجب العجاب هنا، بأن يطالب بعض العلمانيين والمعتوهين بأن تتساوى الأنثى مع الذكر في الميراث، بل ونشاهد في التلفاز من تقترح مع "رابطة الدفاع عن المرأة" أن تجعل أسماء الذكور والإناث تكتب باسم الأمهات!! فمثلا "نوال السعداوي"، تصبح "نوال زينب السعداوي"!! فهل هذا هو التكريم للأم؟ وهل هذا فيه تفرقة وعنف ضد

المرأة حتى نناشد الجميع بأن يغير الأسماء عملا بالمساواة، إنها سطحية ساذجة، كان أولى بنا لتكمل الأضحوكة أن تكون "نوال زينب بهانة"، أي كل الأسماء أنثوية ونقلب موازين المواريث وحقوق البشر المدونة في تاريخ تليد يريد أن تعبث به يد المهرجين من البشر تحت ستار المساواة بين الرجل والمرأة.

على المرأة المسلمة أن ترضى بقوامة الرجل، وتؤكد هذا وترفع من شأن زوجها وتعضده في الحق وتعزز موقفه وتبرزه على أنه صاحب القرار وإن شاركت معه، وتشد من أزره، فبقوته تفخر، وبرجولته تعتز، وذلك إضافة لها ودعما لمكانتها، وهذا الكلام موجه للنساء العاقلات.

كيف تستقيم الحياة في أسرة بها رجلان؟ هل تحب المرأة أن تتساوى مع الرجال في كل شئ؟ هل ترغب في أن نلد نحن وهي تقوم بدورنا كرجال؟ وهي بذلك تعترض على إرادة الخالق بأن يكون للمرأة دور واضح وصفة تميزها: بأنها هادئة، وديعة، ناعمة، كلها حنية (كما يقال في الإعلانات)، ويصبح الرجل خشنا، قويا، صاحب النفوذ، وهي ملكة في المنزل، بذلك تتحدد الأدوار وتتضح المهام، وإذا تبدلت الأمور اختلت الموازين وانقلبت الحياة رأسا على عقب.

بالطبع لم تشكُ المرأة المصرية من أي ظلم وقع عليها، وهي راضية وصابرة ومتحملة المشقة وبناء الأسرة مع زوجها، وهما يعملان سويا وهي بذلك سعيدة معه، (إذن ما الذي حشركم بينهما يا فضوليين؟) إن الفتنة نائمة لعن الله من أيقظها.

إن المبالغة في أن هناك عنفا ضد المرأة دعوى يجانبها الصواب، كما أن من يقول إن هناك عنفا ضد الرجل فكرة ليست حقيقية، بل إن هناك عنفا واقعا في ممارسات الحياة العامة، على الكبير والصغير، على البنت والولد، على المتعلم وغير المتعلم، على الريفي والحضري، بمعنى أن الحياة سلسلة من التفاعلات والتعامل اليومي العادي، وتقع فيه أحداث فردية أو طبيعية، ولا تصبح ظاهرة مألوفة متكررة، فمثلا المرأة التي قطعت زوجها بالساطور وقطعته إربا وعبأته في أكياس وصار الموقف من بعد ذلك مادة لكل رسام كاريكاتير يوضح مدى قسوة المرأة وتسلطها، وسيطرتها على مقدرات الرجال.

ألم تسمع كثيرا من النكت والكاريكاتير (مرفق بعضه): كان هناك تجمعا يضم الأزواج والزوجات فقيل للأزواج: "اللي بيسمع كلام مراته يقوم يقف" فوقف الجميع ما عدا شخصا واحدا، فقال له المسئول "هل أنت لا تسمع كلام مراتك؟" فأجاب: "مراتي هي اللي قالت لي لا تقف"، والمعنى هنا كلنا نسمع كلام زوجاتنا ونطيعهن فيما لا يوجد فيه معصية تخالف الدين أو العرف والتقاليد وبما يجعل السفينة تسير، فالأنثى هي الأم والأخت والزوجة والبنت بالنسبة للرجل.

إن حياتنا الإسلامية وعادتنا العربية فيها من العمق في الرأفة والتعاون والصدق والصبر والحب والوئام ما يجعل الحياة سعيدة وسهلة، وما يحدث في المجتمع من تباين ومشكلات وجرائم هي نتف صغيرة، وأحداث عادية طارئة تحدث في كل المجتمعات البشرية، ولكن الإعلام والمغرضين يرغبون في إظهار الرجل المسلم على أنه متخلف، وهمجي، وعنيف ضد المرأة.

سؤال محرج جدا للمدافعات عن المرأة: "ما موقفكن عندما تطلب الزوجة أو المرأة أن يعاملها زوجها بشكل معين هي التي ترغبه؟" مثلا إذا كانت تعاني من الماذوشية (التلذذ بإحداث ألم بالذات أو الاستمتاع بالألم البدني)، وكان زوجها أيضا متوافقا معها وهو يحب السادية (التلذذ بإحداث ألم، أي استخدام العنف في اللقاء مع زوجته) وهما سعيدان راضيان بذلك الواقع، فهل تريدون أن تغيروا البشر؟ وهل تريدون التدخل في كل شيء؟ دعوا الملك للمالك، وإلا فإنكن ستذهبن إلى أقصى المهالك.

إن ما يقال من لافتات وعناوين من مثل: "العنف ضد المرأة (الجندر)"، "والتحيز ضد المرأة" عناوين رددها الكثيرون ليقصدوا من ورائها أن هناك عنفاً ضد المرأة في مصر، وبدأت الجمعيات والروابط والمؤتمرات تعقد لكي ترفع هذا العنف والقسوة والظلم عن المرأة المسكينة التي قد افترى عليها الرجل!! ولكن الحقيقة من خلال البحوث والتقارير تقول بخلاف ذلك، واقرأ معي:

> تُعد مشكلة ضرب الزوجات لأزواجهن آخر الخطوط الحمراء في المجتمع الشرقي، طالما يصر الجانبان على كتمان الأمر وعدم معالجته، وطالما يستمر الجانبان في تجاهل تبعات المشكلة المستقبلية والتعامل

معها وكأنها ستحل نفسها بنفسها، وطالما تستمر الضحية في تحمل هذا الوضع المزري المهين بسبب الخوف من الفضيحة وانكشاف السر الرهيب والتعرض للسخرية والتهكم من كثير من الناس.

ولكن هل تعبر فعلا الدراسة الميدانية التي أجريت عن طبيعة الأحوال المعيشية المصرية بالقاهرة الكبرى وبعض المحافظات عن طبيعة مجتمعاتنا اليوم؟ أم انها باتت ظاهرة؟ أو أنها مجرد حالات؟ فقد دلت الدراسة على أن أكثر من ٣١% من الأزواج يتم ضربهم بمعرفة شريكة حياتهم، وأن هذه الظاهرة منتشرة في الأحياء الراقية، خاصة في قلب القاهرة، بينما تتراجع هذه الظاهرة في الأرياف والصعيد لتتراجع إلى أقل من ٢٠%، حسب ما ورد بصحيفة الجمهورية.

هل تعلم جماعات الرفق بالمرأة، أو جماعات محاربة التميز، وغيرها.. أن الرجل أكثر تعرضا للعنف والهجوم والمعاناة من المرأة؟ هل تعلمون أن متوسط عمر الرجل أقل من متوسط عمر المرأة على مستوى العالم؟ والسبب أنه يتحمل المسئولية والضغوط والجهد العضلي والفكري وغير ذلك، فهو الذي يتكفل بالأسرة وله القوامة في الإسلام ويُغْزِي أن يكون كذلك، ويُرْجِع علما ء النفس والاجتماع التفوق الأنثوي الملحوظ لتراجع (ملحوظ أيضا) في دور الرجل إلى كثير من الظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي أدت إلى شعور الرجل بالإحباط والقهر، فهو أكثر إحساسا ومعاناة تجاه الاستبداد السياسي والقهر السلطوي ، وهو أكثر مواجهة للأزمات الاقتصادية والاجتماعية وأقل تحملا لها من المرأة، ولهذا نجد أن شخصية الرجل قد اعتراها الكثير من مظاهر التآكل والضعف والتراجع ، في حين صمدت المرأة أكثر لهذه الظروف وتكيفت معها وتجاوزت تأثيراتها الضارة، بل واستفادت منها في بعض الأحيان، وحين أحس الرجل بكل هذا (بوعي أو بغير وعي) راح يتعامل مع المجتمع ومع المرأة بطريقة العدوان السلبي فظهرت عليه علامات اللامبالاة والتراخي والصمت السلبي والتجاهل والمكايدة والعناد، واقرأ معي:

لقد كشف " المرصد الصحفي " بملتقى الحوار للتنمية وحقوق الإنسان " عن ارتكاب (١١١) جريمة عنف بحق الرجال، وذلك خلال الفترة من ٣٠ يونيو ٢٠٠٥ حتى ٢٤ ديسمبر ٢٠٠٥ ، وكانت العينة التي تم العمل عليها هي صحف الأهرام ، الأخبار، الوفد؛ نهضة مصر، المصري اليوم، واعتمدت الدراسة على منهج " تحليل المضمون " لصفحات الحوادث بتلك الصحف، مع مراعاة عدم تكرار نشر الجريمة بأكثر من صحيفة، ومن واقع ما تم رصده كشفت الدراسة عن الاتى :

أولا: بلغ اجمالى " جرائم العنف " التي وقعت على الرجال خلال الستة اشهر الماضية(١١١) جريمة جاء تصنيفها كالتالى : (٨٥) جريمة قتل، (١٥) جريمة سرقة، (١١) جريمة اعتداء بالضرب نشرت صفحات الحوادث بجريدة الأهرام منها (٢٧) جريمة، الأخبار(٢٤) جريمة، الوفد (٢١) جريمة، جريدة المصري اليوم (٢٠) جريمة، فيما نشرت جريدة نهضة مصر (١٩) جريمة .

ثانياً: جاء الدافع لارتكاب هذه الجرائم : بخل الزوج وخلافات أسرية بنسبة ٦٥% ، خيانة الزوج ١٥ % ، خيانة الزوجة ٥% ، السرقة أو الاستيلاء على أموال الضحية ١٥% .

ثالثاً: من بين هذه الجرائم (٩١) جريمة ارتكبتها الزوجات، و(٤) جرائم ارتكبها الأبناء، (٦) جرائم ارتكبها الأقارب، (٦) جرائم ارتكبتها خادمات الضحايا، وأخيرا (٤) لم يكن هناك صلة بين الجاني والمجني علية.

رابعاً: تمثلت الأداة المستخدمة لارتكاب تلك الجرائم في :السم (تيتانوس– صبغة شعر– مبيدات حشرية)، أسلحة نارية (مسدس)، بنزين – كيروسين ، أسلحة بيضاء (سكين – ساطور – مطواة) وجريمة واحدة باستخدام قوالب الطوب .

خامساً: توزع النطاق الجغرافي لهذه الجرائم على النحو الاتى :القاهرة (٦٣)جريمة ، الجيزة (٢٤) جريمة ، قنا (٢) جريمة ، الإسكندرية (٤) جريمة ، المنيا (٣) جرائم ، سوهاج (١) جريمة، أسيوط (١) جريمة ، الفيوم (٢) جريمة ، وأخيرا (١١) جريمة لم تتوصل الدراسة لمكان وقوعها بسبب تجاهل محرر الحوادث ذكره.

سادساً: جاء التصنيف على أساس المستوى التعليمي لمرتكبي الجرائم من السيدات كالاتى حاصلة على الدكتوراة (١) جريمة ، مؤهل عالٍ (٧) جرائم، مؤهل متوسط (١٦) جريمة، من غير المتعلمين (٦٩) جريمة فيما كان هناك (١٨) جريمة لم يبين محرر الخبر المستوى التعليمي لمرتكبي تلك الجرائم، والدراسة تلفت النظر إلى المخاطر التي تهدد منظومة القيم الاجتماعية داخل الأسر المصرية وتؤكد أن العنف بحق الرجال بات على مقربة شديدة من التحول لظاهرة تتساوى في خطورتها مع العنف الواقع على المرأة والطفل، لاسيما وأن هناك جرائم عنف متعددة ضد الرجل لا تصل إليها عيون الصحافة ولا الجهات الرسمية بسبب إحجام الكثير من الرجال عن الإبلاغ عنها لأسباب اجتماعية عديدة .

كما نشرت مجلة "سيدتي" اللندنية في العدد رقم ١٢١١ الصادر بتاريخ ٢٨ مايو ٢٠٠٤ ملفا عن هجر الزوجات للفراش، باعتباره سلاحا جديدا في يد الزوجات ضد أزواجهن، وشملت التغطية الصحفية للملف ثلاثة بلدان عربية هي: اليمن، والإمارات، ومصر، وانظر إلى الأسباب التي ساقتها النسوة اللائي شاركن في الملف، ودفعتهن لهجر أزواجهن وحرمانهم مما أحل الله لهم، فكانت كالتالي: الضعف الجنسي للزوج؛ إذ هي تفضل ألا تمارس الجنس في الأساس على أن تمارس ولا تصل للمتعة المنشودة، والعوامل الأخرى تنوعت ما بين أن هذا الإجراء رد فعل للخيانة المتكررة من الزوج، أو رد فعل على الزواج بأخرى، أو لأن رائحة فمه كريهة... إلخ.

فما بالك بأن بعضهن يغتصبن الرجال والأطفال رغم تشدقهن بأن الاغتصاب "صناعة رجالي"؟، ولكنه لم يظهر على السطح، باعتبار أن أغلبية الرجال لا يبلغون عنه إلا نادراً، وهذه الحوادث الشهيرة نشرت بعض الصحف ووكالة الأهرام للصحافة بعضا منها، وتنظر إحدى المحاكم المصرية قضية منها، اتهمت فيها سيدة باغتصاب شاب يافع، (موقع إسلام أون لابن ٠٣/٠٧/٢٠٠٥)، ويلاحظ أن الإناث مصدقات لدى الشرطة وأمام المحاكم إذا اتهمت إحداهن رجلاً بالتحرش بها.

ولا يقتصر ضرب الزوجات لأزواجهن على المنطقة العربية فيبدو أنها ظاهرة عالمية، ففي الهند كانت نسبة الأزواج "المضروبين" ١١%، وفي بريطانيا ١٧%، وفي أمريكا ٢٣%، وفي العالم العربي تراوحت النسبة بين ٢٣% و ٢٨%، وتبين أن النسب الأعلى تكون في الأحياء الراقية والطبقات الإجتماعية الأعلى، أما في الأحياء الشعبية فالنسبة تصل إلى ١٨% فقط، وهذا الفرق بين الطبقات يمكن أن يكون فرقا حقيقيا، بمعنى أن المرأة في الطبقات الاجتماعية الأعلى استفادت أكثر من جهود تحرير المرأة وتمكين المرأة، فعلا صوتها " وسوطها "، أكثر من المرأة في الأحياء الشعبية والتي لم تصلها تلك الجهود وما زالت تنظر لزوجها باحترام أكثر ولا تهفو إلى منافسته أو مزاحمته أو القفز على مكانته ، وقد يكون فرقا إحصائيا فقط، حيث إن الطبقات الإجتماعية الأعلى يسهل تسجيل حالات الإعتداء فيها أكثر حيث الصراحة أكثر والشجاعة في الإعتراف بما حدث تكون أكثر احتمالا.

إذن ما المشكلة يا كرام؟؟ المشكلة أن الآخر (بلاش أقول أمنا الغولة)، تريد أن تجعلنا نلهث وراء مشكلات تراها هي بعين المتربص، وتتغاضى عنها حين تكون راضية عنا، ثم تثيرها إذا غضبت علينا، ولو كانت عادلة وتمثل بلد الديمقراطية والإصلاح والحرية لمدت يدها لتقضي على مثل هذه المشكلات من جذورها، بمعنى ألا تحاسب الشعوب على النتائج، بل تحاول القضاء على ذلك بزعم الحرية، والعمل على نشر العدل، ودعم التنمية البشرية، والتعليم ومحاربة الفقر والمرض، ومن ثم إذا تغيرت الحياة وأصبحت سهلة

ميسورة ستكون العلاقة بين الرجل والمرأة سوية، وسوف يختفي العنف والإرهاب، وتظهر الحرية والمساواة، وتصبح الحياة لونها "بمبي".